نموذج الجماعات الوظيفية من خلال رواية كاماراد

الباحث: عبد المالك لحسن
جامعة وهران 2

Abstract

This paper is an attempt to localize a model of functional groups, which is one of the analytical models used recently in the study of marginal human and social phenomena, through the work of a well write and serious novel “Camarad” written by the novelist Assedik Haj Ahmed. The author tried to discover the world of illegal immigration of Africans to Europa, using new technics of narration and he made the his work full of exceptional, special and stranger aspects, and through what seemed to us something marginal and isolated, he bring the illegal immigrants to the central of the attention of the readers.

These acts of immigration become a multidimensional phenomenon, in which it manifests a model of "functional group models".

Keywords: functional group, model, society, change, immigration, literature, sociological novels.

تسعى هذه الورقة إلى محاولة رصد نموذج الجماعات الوظيفية، وهو أحد النماذج التحليلية التفسيرية المستخدمة حديثاً في دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية الهامشية، وذلك من خلال عمل روائي جاد وجديد حاول فيه الروائي الصديق حاج أحمد[1] أن يقترب من عالم الهجرة غير الشرعية للأفارقة، بانتهاج طرائق سردية جديدة وغير مألوفة، جعلت من رواية كاماراد عملاً روائياً مفعماً بكل ما هو استثنائي، وخاص وهامشي، استطاع من خلاله الكاتب أن يجعل مما كان يبدو لنا شيئاً هامشي ومنعزل، موضوعا مركزيا يقع في بؤرة الاهتمام وتحت الإضاءة الفنية الكاشفة، لذا بدت لي الرواية بعوالمها وأجوائها وشخصياتها وموضوعاتها، قمينة بأن تكون حقلاً دراسياً خصباً، يمكننا بواسطته أن نتعرف على الظواهر الإنسانية الهامشية، التي هي إحدى تجليات ما يسمى بـ "نموذج الجماعات الوظيفية".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سنحاول في هذه الورقة الإمساك بما نعتقد أنه النموذج الكامن في الرواية واستجلاء أهم ملامحه وسماته العامة، يدفعنا في ذلك أمل الإجابة عن السؤالين الآتيين:

ـ ما المقصود بـ نموذج الجماعات الوظيفية؟

ـ ما هي أهم ملامح وسمات الجماعات الوظيفية في ضوء رواية كامارد؟

1ـ مفهوم نموذج الجماعات الوظيفية:

يتبدى مفهوم الجماعات الوظيفية بوصفه نموذج تحليلي، يحاول الوصول إلى النمط الكامن وراء الظواهر والأشكال والنصوص والخطابات المرتبطة أساساً بالمجموعات الإثنية وبالأقليات الدينية والفئات الهامشية، وقد استخدمه العديد من المفكرين الغربيين، نذكر منهم على سبيل المثال: كارل ماركس وماكس فيبر وأبراهام ليون، وإن تم ذلك بمسميات مختلفة وبمفاهيم متباينة. كما قام الباحث المصري المرحوم عبد الوهاب المسيري بتطوير مفهوم الجماعات الوظيفية وتوظيفه في دراسته الموسوعية عن اليهود واليهودية والصهيونية.

يشير مصطلح الجماعات الوظيفية إلى تلك" المجموعات البشرية الصغيرة (نسبياً)،[2] والتي يقوم المجتمع بإسناد وظائف شتى إليها، يرى أعضاء هذا المجتمع أنهم لا يمكنهم الاضطلاع بها لأسباب مختلفة، قد تكون هذه الوظائف مشينة في نظر المجتمع، ولا تحظى بالاحترام في سلم القيم السائدة"[3]، مثل البغاء أو التنجيم، أو كبعض المهن المحتقرة مثل نزح المجاري ودباغة الجلود وجمع القمامة، أو أية حرفة أو وظيفة أخرى تكتسب بُعداً رمزياً مشيناً، يتجاوز حقيقة الوظيفة، كما قد يلجأ المجتمع إلى استخدام العناصر البشرية الوظيفية لملء فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية، ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى مثل حاجة المجتمع إلى تطوير مرافقه الصناعية والزراعية والعمرانية، وتحسين خدمات التسلية والترفيه وغيرها.

وتوارث أعضاء الجماعات الوظيفية الخبرات المتراكمة في مجال عملهم عبر الأجيال ويحتكرونها، بل ويتوحدون بها، وفي نهاية الأمر يكتسبون هويتهم ورؤيتهم لأنفسهم من خلال وظائفهم، وبذلك يتم تعريف عضو الجماعات الوظيفية في ضوء الوظيفة التي يمارسها ويضطلع بها، لا في ضوء إنسانيته المتكاملة.

2ـ ملامح الجماعات الوظيفية في ضوء رواية كامارد:

استطاع الروائي الجزائري الصديق حاج أحمد في روايته الموسومة بـ كامارد ـ رفيق الحيف والضياع ـ أن يكتب نصاً روائياً غير تقليدي، سواء في موضوعه أو في أسلوبه السردي البديع، تناول فيه موضوعاً حساساً وشائكاً، يعتبر في واقعنا الراهن هاجساً عالمياً وهماً إنسانياً، تقام لأجله المؤتمرات، وتعقد في سبيل إيجاد حلولاً له الملتقيات وتبرم الاتفاقيات الدولية والإقليمية، ألا وهو موضوع الهجرة غير الشرعية (السرية) للأفارقة جنوب الساحل الصحراوي، هؤلاء الذين يخوضون دون كلل أو ملل غِمار الهجرة من الجنوب الموبوء بالفقر والجهل والحرب نحو الشمال حيث جنة الأحلام ومستقر الفردوس المأمول، وبالرغم من كل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التحديات والمخاطر التي تكتنف تلك الرحلة، فإن الإفريقي مامادو ـ بطل الرواية ـ ورفاقه ليكاماراد يخوضون تلك التجربة بكل شجاعة وجسارة، يحدوهم في ذلك أمل الانعتاق من أوضاعهم البائسة، والتطلع إلى معانقة الأحلام المنسوجة بالوصول إلى الضفة الشمالية المنشودة.

رواية كاماراد عملاً فنياً وإبداعاً جمالياً يقتفي أثر المهاجرين ويتتبع مساراتهم ومسالكهم، ويصور انتقالهم عبر الزمان والمكان، ويعكس أجوائهم النفسية وأحوالهم العاطفية والنفسية، ومواقفهم إزاء الحياة والناس. لكن الرواية في الحقيقة، ليست مجرد توثيق أدبي وتصوير فني لرحلة شاقة ومتعبة فحسب، بل سعت إلى أن تأخذ بأيدينا ومخيلتنا إلى اقتحام العوالم القابعة على هامش مدننا ومحاذاة مجتمعاتنا، تلك العوالم التي يقطنها أولئك المهاجرين الذين يتحولون أثناء هجرتهم إلى "جماعات وظيفية" تشتغل بما يُوكله لها المجتمع المضيف من وظائف وأعمال شتى، وتعيش في أحياء "هامشية منعزلة"[4] عن مجتمع الأغلبية.

لقد استرعى انتباهي وشدني في رواية كاماراد قدرة الكاتب الفنية والتصويرية، على أن يحملنا معه في رحلة إلى أمكنة لا هي بالبعيدة عنا ولا هي بالقريبة منا، أحياء قصديرية وعوالم هامشية معزولة، يقطنها أعضاء الجماعات الوظيفية من المهاجرين الأفارقة الذين لم نكن نعرف عنهم سوى أنهم أداة وظيفية نستخدمهم وقت الحاجة، ثم ننصرف عنهم دون أي رغبة في معرفة أحوالهم الخاصة وحياتهم المستقلة عنا، لكن بفضل رواية كاماراد تمكننا من أن نتسلل إلى مرابعهم ونتجول في مساكنهم، ونتعرف على طرائقهم في إدارة حياتهم، وتدبير شؤونهم، كما تأملنا رؤيتهم الكلية للكون والإنسان، بل واستطعنا بفعل دراية الكاتب وسعة اطلاعه وعمق معرفته بعالم المهاجرين، أن ندرك التمايزات الإثنية والعرقية ضمن تجمعاتهم، ونرصد الاختلافات والتباينات الثقافية والأنثربولوجية بين الجماعات الوظيفية (الإفريقية)، لقد بدد الكاتب أوهامنا عن الأفارقة العابرين لأوطاننا، القابعين على هامش مدننا، والتي كنا نظن بسببها، أنهم كتلة واحدة متجانسة ومتماسكة كالجسد الواحد المتعاضد، بينما هم في حقيقة الأمر ـ كما جاء في الرواية ـ يتشكلون من جماعات ومجموعات، لا من جماعة واحدة، وهم في الواقع أمم شتى بينها تقاطعات وتمايزات، وليسوا أمة واحدة متماسكة، وضمن هذا السياق يحدثنا الكاتب عن حي" الشاطو"، وهو حي قصديري من أحياء المهاجرين الأفارقة، يقع على هامش مدينة طاما – تمنراست[5] ـ أو باريس ليكاماراد ـ بحسب لغة النص ـ حيث نجد بمجرد ولوجنا إلى هذا الحي، الذي يبدو للوهلة الأولى وبنظرة خارجية، كأن ساكنته كتلة واحدة متجانسة، أن هناك اختلافات وتمايزات سطحية وعميقة بين الجماعات الوظيفية المهاجرة الموجودة في هذا الحي المعزول، فتصادفك أنماط من الموسيقى متباينة، فهناك الموسيقى المالية (نسبة إلى دولة مالي)، ومن الجهة المقابلة السنغالية والنيجيرية، ومن الجهة الخلفية كوت ديفوارية، تقابلها كاميرونية، وهناك البنينية...إلخ، إشارة دالة على التنوع داخل اللُحمة (الواحدة)، وعلى التعدد ضمن الوحدة المفترضة، ولأن الكاتب يدرك أهمية استجلاء هذه السمة في الجماعات الوظيفية وإبرازها، فقد أومئ لنا على لسان "كايطا" (أحد المقيمين بالحي) إلى "أن تلك الجهة لأهل المالي والنيجر والسنغال، هذه لأهل الكوت ديفوار، هناك لأهل البنين، قربهم أهل الكاميرون، جنبهم أهل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليبيريا"(ص195)، وهي علامة توحي بوجود جماعات لا جماعة واحدة من المهاجرين الأفارقة، وبالتالي لا مجال للحديث عن هوية إفريقية واحدة لنمط الجماعات الوظيفية المهاجرة، إذ بات من الواضح أن هناك هويات إفريقية مختلفة ومتعددة، لكل منها طقوس ومعتقدات واهتمامات وميول، تصل أحياناً إلى حد التناقض أو التضارب، وهذا ما يكشفه لنا بُوح "جورج الليبيري" لرفيقه مامادو عندما سأله هذا الأخير ـ بفضولاً شديد ـ : "كيف وجدت أهل بلدك؟ تبسم وردّ عليّ في الحال: نحن أهل ليبيريا نختلف عنكم ـ دول الساحل المسلمة ـ كثيراً، من خلال مبيتي معكم ليلة الأمس وتصبيحتي على الرفاق عندنا. الأمر مختلف جداً...فمثلاً في مخيمكم ـ يضيف جورج ـ هناك النساء المغلوبات والشيوخ والأطفال والمتعبدون الناسكون... في مجتمعنا (يعني أهل ليبيريا) لا أثر للشيوخ، هناك نساء متحررات يمشين في المخيم بدعامة الصدر...التُبان القصير.. كما وجدتُ قناني كثيرة فارغة، مزروعة بأرجاء البيت للمشروبات الكحولية المقلدة التي يصنعونها تقليدياً هنا" (ص214)، هكذا يُحيلنا النص على حقيقة طالما ذهلنا عنها أو لم نكترث لها، وهي أن الجماعات الوظيفية والتي باتت عنصرا من عناصر المجتمعات المعاصرة، تتكون من مجموعات مختلفة من المهاجرين، الذين ينبغي النظر إليهم لا بوصفهم جماعة واحدة، وكياناً واحداً، بل بوصفهم جماعات وفئات متعددة ومختلفة، تلتقي في سمات وتفترق في أخرى.

من بين السمات الأساسية للجماعات الوظيفية، التي رصدها الكاتب، نجد سمة العلاقة التعاقدية النفعية بين الجماعات الوظيفية من جهة والمجتمع المضيف من جهة ثانية، إذ سيدخل هؤلاء الأفارقة (أعضاء الجماعات الوظيفية) في علاقة تعاقدية نفعية حيادية مع المجتمع الذي يستضيفهم، وهي علاقة "يَحُوسل"[6] كل طرف فيها الطرف الآخر، وينظر إليه باعتباره وسيلة لا غاية، أي مجرد مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها والاستفادة منها، فأعضاء الجماعات الوظيفية (ليكاماراد في هذه الحالة) يشكلون مورد للنفع والفائدة بالنسبة للمجتمع المضيف، لأنهم يمثلون عَمَالة رخيصة يمكن لمجتمع الأغلبية، أن يُوكل لهم الوظائف والمهن الشاقة التي لا يمكن لأعضائه أن يضطلعوا بها، وفي المقابل يمثل المجتمع المضيف من وجهة نظر الجماعات الوظيفية مصدر استرزاق وثراء. لذا تراهم لا يكترثون بالمجتمع المضيف وبمصيره وقيمه، لأن العلاقة بين الطرفين (المجتمع/ الجماعات الوظيفية)، لا تعدو أن تكون مجرد تبادل منافع ومصالح لا أكثر ولا أقل، وهي علاقة تكاد تخلو من أي وشيجة تراحمية إنسانية مشتركة، فالرابطة بين الطرفين يجب أن تظل حيادية ومجردة من العواطف الإنسانية، حتى يمكن الاستفادة منها إلى أقصى حد ممكن، وضمن أحداث الرواية، يبدو أن مامادو (بطل الرواية) لديه وعي تام وإدراك كافٍ بطبيعة العلاقة التعاقدية التي نشأت بينه وبين الآخر (أعضاء المجتمع المضيف) فعبّر عن ذلك بُعيد حصوله على أول أجر نظير خدمة قدمها للمقاول الذي نقلهم بسيارته من عين قزام (مارسيليا ليكاماراد) إلى تمنراست (باريس ليكاماراد) قائلاً لرفيقه إدريسو:" هكذا هي الحياة تبادل منفعة" (ص179).

تمثل هذه العبارة المختصرة تأشيرة دخول إلى عالم الجماعات الوظيفية، ذلك أن عضو الجماعة الوظيفية هو إنسان يدور مع المنفعة حيثما دارت، ويبين إذا ما بانت، فالمنفعة هي المحرك والحافز والباعث، وهي المطلب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والغاية المنشودة والوجهة المقصودة، ولعل العبارة الأكثر حضوراً في ذهن عضو الجماعات الوظيفية هي العبارة القائلة: (أينما تُوجد مصلحتي يُوجد وطني). ومع تعاقب مجريات الرواية ستزداد سمة التعاقدية النفعية وضوحاً، حينما ينزل مامادو ورفاقه بمدينة تمنراست (باريس ليكاماراد)، تبدأ خيوط هذه العلاقة في التشكل والتبلور، إذ نجد في هذه المدينة أولئك الأفارقة المهاجرين الذين تجبرهم ظروف السفر والهجرة على العمل بأية وظيفة من أجل تأمين المال لبقية الطريق ـ فحسب رأي مامادو ـ: "علينا العمل بكثرة أو اختراع أية طريقة غير قانونية، تدر علينا مالاً وفيراً" (ص225)، وفي الطرف المقابل نجد أفراد المجتمع المضيف ومؤسساته، بحكم الواقع الاجتماعي والاقتصادي المتنامي، بحاجة ماسة إلى اليد العاملة غير المكلفة التي يمكن أن تُستغل في أعمال البناء وما يتصل بها من حرف ومهن مختلفة، ما يؤدي في نهاية المطاف إلى ظهور أو انبثاق مسمى الجماعات الوظيفية، حيث تدخل هذه الجماعات في علاقة تعاقدية مصلحية نفعية، تتسم بالمادية الحادة، وبالبرودة العاطفية التامة، وبالعقلانية الصلبة المجردة من كل ما هو حميمي إنساني مفعم بالدفء والتراحم، وقد عالجت الرواية هذه السمة وقدمتها في العديد من المواقف والمناسبات، فهذا مامادو يحاول أن يصف لنا شخصية المقاول الأول (عضو المجتمع المضيف) الذي اشتغل عنده رفقة أصدقائه كايطا وإدريسو وساكو، فيصفه وصفاً حسياً ظاهرياً برانياً، لا يجاوزه إلى ما هو أعمق وأهم عندما يتعلق الأمر عادة بالإنسان، يقول مامادو:"نزل كايطا أولاً، ثم المقاول ثانياً، الأخير فارع الطول ليس بديناً لكنه مكتنز قليلاً، فمه وأنفه غير مسيج خلف اللثام...إلخ " (ص227)، أوصاف لا تُغني من حقيقة وجوهر الإنسان شيئاً، لكنها معبرة عن محدودية وضيق العلاقة بين الطرفين أو واحديتها (علاقة واحدية مادية حسية)، لم ينس مامادو أن يضيف إلى هذه الصفات الظاهرية، صفة أخرى، تعكس نظرة المقاول إلى عضو الجماعة الوظيفية، تلك هي صفة عدم الاكتراث أو اللامبالاة فـ"المقاول غير مبالٍ بسيارته، وما أدراك بنا نحن؟!(ص229)، عدم اكتراث المقاول (عضو المجتمع) بالمهاجر (عضو الجماعة الوظيفية) صفة تجعل العلاقة بين الطرفين سلسة وسهلة، وغير مكلفة، بحيث يمكن التخلص منها بسهولة فور انتفاء المنفعة أو المصلحة بين الطرفين.

في مناسبة أخرى، يُلّمح مامادو إلى صفة وصم بها شخصية المقاول الثاني، وهي صفة الاستعلاء!(ص319)، فإذا أضفنا إلى هذا حديث مامادو عن معاناة رفيقه الكمارادي، المنحدر من منطقة "موبتي" المالية، الذي تعرض لحادثة مؤلمة في ورشة بناء لأحد المقاولين، فقد على إثرها إحدى ساقيه ما سبب له عجزاً دائماً، دون أن يكلف المقاول نفسه بدفع تكاليف العلاج (ص326)، تُصور هذه المشاهد نظرة أفراد المجتمع إلى عضو الجماعات الوظيفية، لا بوصفه كائناً بشرياً ينعم بكل الحقوق والمزايا التي يحظون بها، بل بوصفه مجرد أداة أو وسيلة وظيفية أو باعتباره شيئاً مباحاً يُستغل ويُسّخر فحسب.

السمة الثانية من سمات الجماعات الوظيفية، وقد لفت نص كاماراد أنظارنا إليها، هي سمة العزلة والغربة التي يعاني منها ويكابدها أعضاء الجماعات الوظيفية في ظل المجتمعات التي تأويهم، فبحكم أن هؤلاء وافدون من الخارج، فإن الآلية الأولى التي ينتهجها المجتمع المضيف في التعامل مع أعضاء الجماعات الوظيفية، هي العزلة والتهميش اللتان يحافظ المجتمع عبرهما على تماسكه الداخلي وعلى تراحمه وقدسيته، وتتجلى العزلة في الأحياء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القصديرية التي تقع على هامش المدن وبمحاذاتها، وهي بمثابة جيتو خاص، لا يسمح أو لا يمكن لغير أعضاء الجماعات الوظيفية ولُوجُه نظراً لأجواء الخوف والرعب اللتان تحومان حول هذه المكان، حتى أن حي "الشاطو" يوصف بأنه حي قصديري فوضوي بناياته طينية هشة قصيرة بنيت بشكل عشوائي (ص194)، حي خالص لأمة ليكاماراد، أجوائه مفعمة بالأساطير، تتداخل فيه الحقائق بالخرافات، يقول مامادو عن حي الشاطو:" حّينا بالشاطو، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه من أهل البلدة... حتى الشرطة لا تقوى على دخول الحي، هو منطقة كامارداية حمراء كما توصف في التقارير الأمنية لمدينة باريس المحروسة" (ص229)، مشاهد وصور خارجية، سيدعمها الكاتب بمشاهد وصور داخلية، استطاعت كاميرا مامادو المتخيلة أن تلتقطها بعناية فائقة، مشاهد عن عوالم العزلة والاغتراب يعيشها أعضاء الجماعات الوظيفية، يمتزج فيها ما هو حقيقي بما هو خيال، ويتماهى في فضائها الواقع بالأوهام، أجواء تطغى عليها الممارسات الشاذة والسلوكيات المنحرفة، فمن تعاطي المخدرات إلى أصناف الممنوعات وتناول الكحوليات والمتاجرة بالأجساد والعملات المزيفة ! هي أفعال مستهجنة وممارسات بغيضة، لكنها نتيجة طبيعية وحتمية لحالة العزلة والغربة اللتان يعيشهما أعضاء الجماعات الوظيفية في هامش مدن الضواحي.

يتوافق مع عملية العزل البرانية من قِبل المجتمع إحساس جواني عميق بالغربة لدى عضو الجماعة الوظيفية، مصدره الشعور بالانتماء إلى وطن أصلي يشعر حياله بالحنين الدائم والشوق العارم، ويصبح الوطن موضع عاطفته المشبوبة وبؤرة مشاعره المكبوتة، في رواية كاماراد ثمة مؤشرات تدل على هذا الشعور بالغربة الذي يعانيه عضو الجماعات الوظيفية، حيث عادة ما يعود مامادو بذاكرته ويسافر بخياله إلى حي "غمكلي" بالعاصمة النيجرية نيامي، الحي الذي نشأ وتربى فيه، يتذكر أمه وأخته في كل ليلة يخلو فيها إلى نفسه، كما يتذكر فضائه الوحيد مجلس "فضا"، وهو في مقارنة دائمة ومقابلة مستمرة بين ما يجده في غربته، وما كان يعيشه في موطنه، بل ويتذكر من حين لآخر بقرته "بكتو" التي باعها من أجل تأمين المال لرحلته الطويلة، كل شيء يذكره بماضيه ويجعله أكثر ارتباطاً به، لكن الذكرى تترك في النفس مرارة كما يقول مامادو "الحنين للديار، إذا ما اختلط بحلم الفردوس في الغربة، له طعم لا يوصف والله !" (ص348)، " والحزن، إذا عُجن بالحنين في الغربة، له وقع خاص والله" (ص348)، بالتالي الحنين إلى الوطن في تجربة الاغتراب هو شعور مؤنس، كما هو شعور مؤلم وقاسٍ لا يتحمله إلا من كان جلدا صبوراً متشبثا بأحلامه وأمانيه التي هاجر من أجلها.

العزلة والغربة تؤديان في آخر الأمر، إلى تزايد اعتماد عضو الجماعة الوظيفية على جماعته من أجل ضمان بقاءه والاستمرار في المحافظة على هويته، فعضو الجماعة الوظيفية هو شخص غريب يعيش في محيط لا يستطيع أن يندمج فيه أو ينصهر في بوتقته، لذا كان عليه أن ينكفئ على جماعته لأنها هي وحدها طوق نجاته من الضياع والتلاشي تحت سماءً بلا أفق وأرضاً بلا معالم لا يمكنه أن يمد بجذوره فيها.

الملمح الثالث أو السمة الثالثة من سمات الجماعات الوظيفية، هي ازدواجية المعايير الأخلاقية في التعامل مع الذات والأخر، حيث يطور طرفا العلاقة أعضاء الجماعات الوظيفية والمجتمع المضيف رؤية أخلاقية ثنائية، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على الآخر، لذا لا يشعر أعضاء الجماعات الوظيفية حيال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجتمع المضيف بأي التزام أخلاقي، لأن المجتمع في نظرهم مجرد مادة استعمالية، ولا يتمتع بأية قداسة أو حرمة، وبالتالي يمكن أن يكون موضوعاً للاستغلال اللاأخلاقي وللانتهازية المقيتة، مثلما فعل مامادو عندما قام بالاحتيال على رجل كهل من أعضاء المجتمع المضيف، لم يرى ضيراً في أن يبيعه العملات المزيفة دون أدنى إحساس بعقدة الذنب أو خوف من وخز الضمير (ص250)، بل على العكس، انتابته فرحة عظيمة مصحوبة برقصته المعتادة لأنه تمكن من الاحتيال على الرجل المسكين، هل يعني هذا التصرف أن مامادو شخص بلا وازع أخلاقي وبلا ضمير؟ لا، تماماً لمامادو قيم خُلقية، لكنها لا تظهر ولا يتم توظيفها إلا في التعامل مع الرفيق الكاماردي، وهذا يعني أن المعايير الأخلاقية التي لدى أعضاء الجماعات الوظيفية تسري فقط على تعاملهم فيما بينهم، ولا تسري على غيرهم، والمجتمع المضيف يفعل الشيء نفسه، فهو يحتفظ بطهره وتراحمه لنفسه، بينما يُخضع أعضاء الجماعة الوظيفية التي يوظفها ويستغلها لمجموعة من القيم النفعية والمادية البحتة، بهدف تعظيم العوائد المادية فحسب، ما يعني أن الآخر (سواء من منظور الجماعة الوظيفية أو مجتمع الأغلبية) مدَّنس مباح يقع خارج نطاق المحرمات والمطلقات الأخلاقية.

يمكننا أن نضيف إلى هذه السمات، سمات أخرى، قد تكون أقل تجلياً وبروزاً في رواية كاماراد، لكنها حاضرة بشكل أو بآخر، ومن بينها سمة الحركية الدؤوبة، بمعنى أن أعضاء الجماعات الوظيفية لا يرتبطون بالمكان/ البلد الذي يعيشون فيه، فهم يتوافدون عليه من كل حدباً وصوب ويمكثون به مدة من الزمن، ريثما تتهيأ لهم أسباب الانتقال إلى وجهة أخرى أكثر نفعاً وفائدة، يعزز حالة الحركية هذه، شعور أعضاء الجماعات الوظيفية بأنهم يعيشون في مسام المجتمع وعلى هامشه وليسوا في صميمه وعمقه(أنهم غرباء)، لذا يتوجهون بولائهم إلى الوظيفة التي يشتغلون بها، لا إلى البلد الذي يستضيفهم، وقد عبرت الرواية عن هذه الخصلة من خلال رصد حركة الرفاق ليكاراد وانتقالهم من بلد إلى آخر، والتعبير الرمزي عن هذه الحركية هو تلك الحقائب التي يحملونها على أكتافهم ويتوسدونها عند نومهم (ص316) استعدادا للرحيل والانتقال إلى مكان آخر، وحتى لو فضّل بعضهم الإقامة والاستقرار كما فعل "ساكو"، فإن السبب في ذلك يعود إما لعجز مادي أقعده أو علة جسدية منعته، أو لأن المقام بدا لصاحبه أنفع وأجدى، وفي كل الأحوال البقاء مثل الارتحال يمليهما فقدان الارتباط بالمكان فالمكان بالنسبة للمهاجر من أعضاء الجماعات الوظيفية لا يعدو أن يكون مورداً مادياً ووسيلة للكسب والغنى.

خاتمة:

يبدو من الجيد في ختام هذه الورقة، أن أؤكد على أمرين أساسيين: أولهما، أن رواية كاماراد للروائي الصديق حاج أحمد ـ من وجهة نظري ـ لم تمثل معالجة لقضية الهجرة السرية للأفارقة نحو أوروبا فحسب (مع ما لهذه المعالجة الفنية من قيمة وأهمية)، بل مثلت الرواية فتحاً غير مسبوق لعوالم المهمشين والمهاجرين القابعين في هامش المدن وضواحيها، لقد استطاعت الرواية أن تضيء لنا عتمة الأحياء القصديرية التي يأوي إليها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المهاجرين أعضاء الجماعات الوظيفية، فأسهمت بذلك في ردم الهوة والمسافة التي تفصل بيننا وبين الأقليات المتواجدة في أوطاننا، فالعمل الروائي بهذا الشكل المميز كفيل حقاً بأن يلفت أنظارنا إلى معاناة الآخر (المهاجر عضو الجماعة الوظيفية) ومدى شقائه وغبنه وحيفه، ما يحثنا ويحفزنا على أن نكون أكثر إنسانية وآدمية سواءً في النظر والرؤية، أو في التواصل والمعاملة، تكاد الرواية بذلك أن تشكل حالة وعي وإدراك عميق لملامح وسمات إحدى الظواهر الإنسانية الغنية والثرية والمتعددة الأوجه والأشكال، أعني بها ظاهرة المهاجرين (أعضاء الجماعات الوظيفية)، وهو موضوع لم يأخذ الحيز المطلوب من العناية التي تليق به على المستويات الأدبية والفكرية والعلمية.

الأمر الثاني الذي أرغب في التأكيد عليه، هو أن نموذج الجماعات الوظيفية ـ في رأيي ـ يمثل أحد المرجعيات الفكرية التي ترتد إليها رواية كاماراد، بمعنى آخر، أن الكاتب ـ في تصوري الذي قد أكون مخطئاً فيه ـ قد استلهم موضوعه من معايشته الواقعية ومن تواصله الحسي والعاطفي مع أعضاء الجماعات الوظيفية من المهاجرين المتواجدين ضمن فضائه الاجتماعي والثقافي، فلولا الاحتكاك المباشر والتعاطي والمخالطة الواقعية، والاقتراب والدنو من ظاهرة المهاجرين، ما انجس موضوع الرواية في وجدان وخيال الكاتب، ولولا الهواجس والأسئلة ذات الأبعاد الوجودية والجمالية والقيمية التي دارت بخاطر الروائي الصديق حاج أحمد حول الظواهر المحيطة به، وفي مقدمتها ظاهرة المهاجرين الأفارقة، التي لا اعتقد أن الكاتب يعدها ظاهرة مستقلة، بعيدة عنه، بل هي شديدة الالتصاق والملامسة لذاته، بحيث يمكنه أن يتقمص شخوصها ويتغلغل في أعماقها، ويعيش أحوالها بكل تفاصيلها الدقيقة والعميقة، فالعمل الروائي بالكيفية التي قدمها الصديق حاج أحمد لا يعتمد في بنائه ورسم ملامحه على الجهد البحثي، ولا على المقدرة على التنقيب في المعجم الخاص بظاهرة شديدة التعقيد والغموض كظاهرة المهاجرين الأفارقة فقط، بل يستند كذلك على المخزون السوسيو ثقافي للكاتب، وعلى تجربته الذاتية بكل حمولاتها النفسية والعقلية والعاطفية والجمالية، فإذا كانت شخصية البطل مامادو ورفاقه وأحداث الرواية كلها من نسج خيال الكاتب، فإن المادة الأولية (الخام) وبذور العمل الأولى كلها متجلية في واقع الكاتب وحاضرة على هامش يومياته وبجوار عالمه الخاص، وتلك هي إحدى عناصر أو عوامل نجاح أي عمل إبداعي، "فشخصية المبدع، ذات صلة عميقة بما يجري من حوله من حركية الحياة، وما يكتنفها من ظواهر ومرئيات"[7]، يلتقطها بحسه المرهف وبعينه الجميلة التي ترى الجمال في كل شيء، في المهم والتافه، وفي المركزي والهامشي، في الذات وفي الآخر، هذه المركبات والعناصر في تظافرها وتفاعلها، هي التي مكنت لهذا النص الروائي البديع في تصويره الفني، والمبدع في طرائقه السردية أن يعرف طريقه إلى النور، وإلى أن يصادف أثره الطيب في عقل ووجدان القارئ المتذوق.

[1] ـ الصديق حاج أحمد المعروف باسم (الزيواني)، روائي وأكاديمي جزائري أستاذ اللسانيات بجامعة أحمد دراية بأدرار، من مؤلفاته: التاريخ الثقافي لإقليم توات، الشيخ محمد بن بادي الكنتي، رواية مملكة الزيوان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[2] ـ أغلب تلك المجموعات هي مجموعة وافدة على المجتمع من الخارج، إما بإرادتها أو تم جلبها، وبعضها الآخر يأتي من نسيج المجتمع، لكنها تظل بالرغم من ذلك مجموعات هامشية أو مهمشة.

[3] ـ المسيري، عبد الوهاب، مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر ، دمشق، ط1، 2002، ص45.

ينظر كذلك: المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية المجلدان الأول والثامن، دار الشروق، مصر، ط1، 1999.

[4] ـ القارئ لرواية كاماراد، لا شك سيلحظ أن جل أحداث الرواية ومشاهدها، تدور عن عوالم العزلة والتهميش التي يعيشهما المهاجرين الأفارقة في هامش مدن الضواحي.

[5] - مدينة تمنراست: ولاية (محافظة) من ولايات الجنوب الشرقي لدولة الجزائر، وهي تشكل معبراً رئيساً للمهاجرين الأفارقة.

[6] ـ الحوسلة: مصطلح سكه د. عبد الوهاب المسيري، وهو اختصار لعبارة "تحويل كذا إلى وسيلة" . والعلمنة الشاملة والترشيد المادي يرميان إلى تحويل الطبيعة والإنسان إلى وسيلة، أي حوسلتهما". ينظر إلى : المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج8، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999، ص27.

[7] ـ بوشموخة، عمر، الإبداع في الفن الأدبي، منشورات أبيك، د ط، 2007، الجزائر، ص179.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com